اللغة العربية والتقدم الطبي
من لغة الترجمة إلى لغة التأليف

الباحثة هند النويني
طالبة باحثة بسلك الدكتوراه تخصص لغة عربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط
المغرب

مقدمة:

في مسار الاحتكاك بكتب التراث العربي الإسلامي والتزود بمدارك جديدة عن التخصص، تكون أول ما تحمل من أفكار تعيق عملية التعلم مسألة: هذا ليس تخصصي. والعجيب أن ممارسة الفعل القرائي للمادة العربية الدسمة، المختلفة، تخبرك عكس ذلك. فتجد نفسك داخل سياق آخر تحس فيه أن كل السنين التي مضت. عششت وسكنت بدواخلك أفكار استهلكتها بحكم التكوين أو المسار العلمي الخاص بك. وحتى داخل المجتمع الذي كرس هاته الأحادية بل وعمل في ترسيخها. ولعل من أبرز هاته المسلمات، ضيق آفاق العمل والمستقبل المشرق بالنسبة لمتخصصي مسلك اللغة العربية بالجامعة. ثم ماذا ستصنع بهاته اللغة إلا أن تمارس مهنة التدريس. إضافة لكونه تخصصا شحيح المدخول. وقد تملك كل هاته الأحكام سياق مادي صحيح لا يمكن انكاره، لكن على مستوى التكوين العام لشخصية هذا الباحث. ومدى تغيره على المدى البعيد حين خوضه غمار البحث والانفتاح على تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. سيرفع الغبار ويزيح العتمة على كثير من الأفكار المستهلكة. والتي آن إيقاف تسربها في أوساطنا العلمية.

ولعل أهم ما نزيح عنه بعض العتمة، ونغير به سياقنا الأحادي في التفكير، هو امتاننا لامتلاك هذا اللسان العربي، الذي ضم جوامعه القران الكريم فحُفظ به. وحفظت به إمكانية تواصلنا مع حقبة زمنية طويلة تمتد لقرون، حَوَت آثارا ومعارف في شتى المجالات، من الأدب حتى العلوم النظرية والتطبيقية. حتى إذا فتحت كتاب ابن سينا القانون في الطب، برزت الكثير من المعارف الطبية، التي لا يستطيع المرء الخوض فيها بشكل كبير اليوم؛ خصوصا إن كان هنالك عائق في امتلاك اللغة الأجنبية، التي صار بها لسان هاته العلوم. وتستطيع من خلال هاته اللغة أيضا أن تطلع على فنون العمران وتكتسب أسلوب الوصف المتين من الرحالة والعالم ابن خلدون. وأن يثمر فينا هذا التماس مع مثل هاته المصادر فنزيح منطق العجز فينا وأحاديته. فيصير صاحب اللسان العربي قاصا بارعا وعالما في التاريخ، ويعلم الأوزان والموسيقى ويفهم أيضا في الفلك و حركة النجوم. كل ذلك يبدأ من سؤال الذات من نحن؟ وماذا نريد؟

والدعوة اليوم ليست تحاملا على ثقافة على حساب أخرى. بقدر ما هو محاولة لفت النظر لثلة من الشباب والباحثين لمثل هذا التخصص "اللغة العربية"، ودمجه مع تخصصات أخرى تفيد النهوض بكل أنواع العلوم. لاعتبار نستشفه من التاريخ ونرد به على الرأي الذي يُسَوق لمحدودية اللغة العربية في استيعاب والتعبير عن هاته العلوم. والذي نراه عذرا أقبح من الزلة نفسها. وفيه إهمال اللغة العربية والاعتزاز بغيرها في سياق ما يسمى بالحضارة والتطور لا غير، وتبعية مضنية شكلت جيلا أعوج لا إلى هؤلاء أو لا إلى هؤلاء.

وما نسوقه اليوم في مقالنا نخص به مجال الطب العربي _أحدَ هاته العلوم التي عرفت تطورا ملحوظا منذ استيفاء القرن الأول الهجري_ ضمن أهم محطاته. بداياته وأهم اكتشافاته وأشهر رواده. وبه وجب توضيح مسار تطور هاته ا لحركات العلمية التي حركت سيرورة التقدم الإنساني. وكيف لها أن تصل إلى ما وصلته بعدما تَرجمت مجموعة من الأثار القيمة للعديد من الحضارات

القديمة التي سبقتها؟ بل وعمدت بعد الاستفادة منها إلى تصحيح وتقويم بعضها، واكتشاف بعضها الأخر واستخدام حلول وطرق للعلاج غيرها. ثم هل يمكننا نحن اليوم العودة لها ودراستها، والانفتاح على موادها وفهمها دون وسيط يشرحها؟

كل ذلك نحاول الإجابة عنه في هاته المقالة، محاولة منا صرف النظر لما جاد به اللسان العربي في الفترات الأولى كقاعدة وحاضنة ثم لغة لتأليف في مراحل متقدمة.

1. عوامل البزوغ:

أ/ رسالة الإسلام:

هاته القاعدة العريضة من الاجتهادات والإنجازات جاءت تلبية ونتيجة لأول الوحي، في قوله تعالى: باسمالله الرحمان الرحيم {اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرا وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يَعلم[1]} صدقالله العظيم. يقول ابن كثير[2] في تفسير هاته الآيات، أن أول ما نزل من القران هو ما يدل على أول النعم التي أنعمالله بها على عباده، وفيها تنبيه على ابتداء الخلق، ثم تعليمه إياه ما لم يعلم ، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على سائر الملائكة، أمّا عن العلم فجاء في التفسير وجوده في الأذهان وتارة يكون في اللسان وتارة في الكتابة بالبنان وهو سياق ما جاء في الأثر "أن قيد العلم الكتابة".

هذا العلم الذي وجب أن يدل على خالقه وبارئه أولا، وفيه دعوة لتصحيح العقيدة، بميزان التفكّر والتأمل واعمال الحواس في اكتشاف كل ما يحيط بنا يقول الله تعالى: {قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثمالله ينشأ النشأة الآخرة إنالله على كل شيء قدير[3]} صدقالله العظيم.

وغيرها كثير من الآيات. ثم ينتقل بنا الخطاب القرآني إلى الإشارة الخاصة والتي تحتاج منا الوقوف على أعتابها، والبحث في أسرارها. كقوله تعالى {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت}[4]. وهو ما ستكتشفه الدراسات والأبحاث العلمية في كل من مجال الطب والتشريح وعلوم الفلك والحساب ثم علوم الآثار والتغيرات التي تطال التضاريس العامة للكرة الأرضية في مراحل متقدمة من التاريخ. وهو ما حثَ عليه القران في أول الأمر بتنبيه الإنسان على أهم خطوة في المعرفة والتقدم. ألى وهي الملاحظة والتفكر في خلقه من حيوانات وجمادات وغيرها. مما يوجد حولنا. وفي ذلك بداية لطريق طويل من الاستكشاف الذي يعقبه إدراك الانسان لعجزه وحقيقة خلقه.

ثم أفاد القران الكريم البشر بإشارات تُظهر ما لا يدركونه من أسرار الكون المعجز لهم في الخلق؛ والتي لم تُكتشف حقيقتها إلا بعد قرون. في قوله تعالى {إنا خلقنا الإنسان من نُطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا}[5] صدقالله العظيم. يقول عز الدين الفراج أن هذا الترتيب الذي جاء به القران في ذكر السمع قبل البصر قد أثبت حديثا كحقيقة علمية؛ تفيد أسبقية اكتمال السمع كحاسة أولى للجنين يستطيع من خلالها في وقت قصير تحليل الأصوات والتعرف عليها. بينما يحتاج البصر إلى ما يعادل ثلاثة أشهر حتى ستة أشهر بعد الولادة، حتى يكتمل نمو العين، وتقريبا تسعة أشهر لتحليل الألوان الأساسية[6]. ومثلُ هاته الإشارات الربانية موجود في ثنايا كتابالله عز وجل متفرقة في سوره والتي ظل العلماء يدرسونها إلى الآن تهم مختلف المجالات، وتنضوي تحت ما يسمونه بالإعجاز العلمي في القران الكريم.

لذلك اتسمت وبنيت دعوة الإسلام على البحث والتطور وطَرق أبواب الحكمة المتعددة سواء في تفسير القران أو الفقه أو التخريج للأحاديث ثم بعدها طلب العلوم الرياضية الفلكية المنطقية وغيرها. باعتبار أنها أبواب من العبادة لله على علم؛ في قوله

تعالى {إنما يخشى‌الله من عباده العلماء[7]}. وفي قوله تعالى أيضا بعد باسم‌الله الرحمان الرحيم {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[8]} صدق‌الله العظيم.

ب/ الفتوحات الإسلامية: وبعد تمام الرسالة المحمدية ووفاته صلى‌الله‌عليه وسلم، ستستمر اجتهادات الخلفاء الراشدين في نشر هاته الرسالة عبر ما يسمى بالفتوحات إسلامية. هذا التحرك الذي وجده المؤرخون كفيل بأن يضم تحت جناحه الكثير من العلوم في سياقات تطور العمل البشري الراسخ منذ الأزل. بَدل له العرب المسلمون مجهودات بدنية ونفسية وبشرية ومادية. فيها تطورت مهاراتهم الحربية وعلومها.

أولها مع خليفة المسلمين سيدنا أبي بكر ثم عمر بن الخطاب رضي‌الله عنهما، وفي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي‌الله عنه. ومع خلافة الملك بن مروان وعصره الملقب بالذهبي في إمارة بني أمية. ففُتحت سمرقند على يد ابن قتيبة بن مسلم الباهلي، والديبّل على يد محمد بن القاسم الثقفي وطُلَيْطلة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد.

يقول الدكتور شوقي أبو خليل ما يلي: [أقف وقفة اعجاب بالقائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي، وقفة احترام لعقيدة حملت المجاهدين من الجزيرة العربية والكوفة والبصرة، وهي مناطق حارة المناخ قليلة الأمطار، إلى مناطق باردة ثلجية. كيف تأقلموا؟ كيف عملوا في هذا المناخ المغاير كليا لمناخ مساقط رؤوسهم وبيئتهم التي عاشوها. خصوصا وأنهم عبروا نهري جيْجون (أمودايا) وسيحون(سردايا) واجتازوه إلى الصّين من منطقة تتجاوز قمم جبالها سبعة آلاف متر[9]].

وقد بلغ هذا الفتح العظيم، ضم حضارة فارس وحضارة اليونان ثم حضارة الهنود من جهة باكستان والهند وكازخستان وغيرها ثم وصولها إلى حدود الصين إذ يقول المستشرق الهنغاري (أرمانوس فابري) [أن جيش قتيبة توغل إلى ما وراء كاشغر حتى وصل مقاطعة قانسو في وسط الصّين، كما وصل إلى مديني (ترمان) الواقعة في جنغاريا في حدود منغوليا الغربية و(خوتن) الواقعة شمالي هضبة التيبت وشرقي كشمير مما جعل امبراطور الصين (يوانغ جونغ) يطلب الصلح من قتيبة[10]]

ورابعها مع فتوحات الرشيد والمأمون والمعتصم في العصر العباسي. وفي بطولاتهم تغنى العديد من الشعراء، لما أبدوه من بسالة وغلبة العدو؛ ففتح الرشيد لهرقلة [11]في آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور إمبراطور بيزنطة. وفتح المعتصم أنقرة صورها الشعراء في قصيدهم كملاحم عظيمة[12]، جَزُل عطاء الخلفاء لسماعها وقد ضمت من المدح والتغني بالبطولة ما يسرهم ويذيع سيرتهم وقد أصبحت بعد ذلك تاريخا. ناهيك عن غلبتهم للأتراك أيضا.

وهي في ذلك قد بلغت ما بلغت من القوة، نشرت تعاليم الدين السمح الذي جاءت بفتوحاته من أجله. ونقصد بذلك انتشار الثقافة الإسلامية وأخلاقها التي تدعو إلى نفي الفروقات الطبقية، واحترام المرأة وتأدية حقوقها على أكمل وجه، وتعلم الناس القران الكريم الذي وجب بالضرورة لأجله تَعَلُّم اللغة العربية. وأن لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوي. "ولا نكاد نتقدم في كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن _يقول شوقي ضيف_ حتى نجد اللغة العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع الأنحاء القريبة والبعيدة... وأصبحت شعوبها جميعا عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة"[13]. وفي نفس الوقت صارت اللغة العربية وعاء لثقافات هؤلاء الناس المنتمين لشعوب مختلفة، وصار التعايش أيضا دمويا كما يصفه شوقي ضيف، بعد أن نشأ جيل جديد أمهاته من المسيحيات، وروميات، وبالتالي من الطبيعي أن يحمل عنهن ثقافتهن وطباعهن[14].

ونحن لما نذكر الفتح نذكر أيضا أن مساره لم يكن بالوحشية التي صاغها التاريخ عن أمم وأجناس أخرى. بل حتى في هذا السياق أفحم وأعجب الكثير من الناس أسلوب الإسلام الدعوي؛ لما يتيح به للعدو مجال الاختيار في قبول الدين الجديد أو دفع

الجزية، ومشاركة الحياة العامة مع المسلمين. وبالتالي هذه الطريقة أسهمت في تجانس وتلاقح وتعايش الشعوب المختلفة والقبائل المتعددة مع بعضها البعض. والدليل على ذلك كثير، ويُعد من أبرزها ما جاء في قصة اسلام مدينة سمرقند المشهورة. بعدما شهد الناس عدل الإسلام واحقاق الحق.

وفي مثل هذا السياق الذي ليس بالسهل أبدا ولا الهيّن. لا زالت تُقدم بعض الجهات على تبخيسه، أو القول على أن دور العرب كان فقط في نقل المصادر الطبية لجالينوس وبقراط دون أي تطور كبير في مجال الاكتشاف الطبي. وهذا ما تجده السيرة أو السردية التاريخية العربية حيفا. وتبخيسا لدور هاته القوة العظمى التي حكمت منذ القرن الثالث الميلادي إلى حدود نهاية القرن الثامن عشر ميلادي. [15] في الوقت الذي حقق هذا الانسجام بين الإسلام كعقيدة وهاته الحضارات رسما لسياق تاريخي جديد مفعم بالروح العلمية، وما تحتاجه من قيم تحترم فيه العقل الإنساني وما يطرح من تساؤل يخدم مصلحة النهوض بالعلم والتطور، وفي تأطير حياة العامة بما يحقق غاية العدل وتنافي الظلم.

ت/ البناء الحضاري: أثمرت دائرة التلاقح الثقافي_ كما وسبق الذكر_ مع حضارات عريقة " كالفرس" و"اليونان" و"الهند"، انفتاح العرب على بيئات مختلفة، سواء من ناحية "نمط العيش" أم من ناحية المناخ والتضاريس المختلفة عن الجو الحار والجاف الذي تتسم به صحراء العرب. أو من ناحية العلوم الأدبية والتطبيقية المحضة.

وكنتيجة على هذا التعايش، برز الزحف والتطور العمراني في العصر الأموي، واندفعت العرب في تعلم تخطيط العمران والمباني، وطُرق استغلال الأرض. وفي مجال تسيير تعلموا طرق ضبط الدواوين، وفي ذلك يقول شوقي ضيف أنهم نقلوا عن الفرس والروم وكانوا يستعينون بهم في ذلك. إلى أن تم تعريب تلك الدواوين جَميعُها في فترة حكم السلطان عبد الملك[16]. ناهيك عن بروز ألوان جديدة من الإبداع الفني في الأدب كالغناء والموسيقى وألحان مهدت لأوزان العروض على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي.

اتصالهم أيضا بالفلسفة وعلوم المنطق فقد كانت بعض البلاد الفاتحين لها تحمل ثقافة تسمى بالهيلينية وهي مزيج بين اليونانية والشرقية. وأغلب مصادرها كانت باللغة السريانية أو اليونانية. وكانت تدرس وتعلم في أنطاكية والإسكندرية، وإيران وغيرها. وكانوا يعنون بالمنطق الأرسطاليسي[17]. فنظر العرب المسلمون إلى الوقوف على هذا المنطق ومعرفة أوجه الاستدلال منه. فكثرت الجدالات والمناظرات. وغيرها من المظاهر التي ميزت الجو العام بالاختلاف والتنوع في نفس الوقت، الذي بفضله كانت العلوم في تطور ونشاط.

حصُلَ تأطيره في فترة حكم العباسيين. فَساد الجو العلمي، وكثرت المساجد وفيها حلقات العلم المتنوعة من حلقات للفقيه وأخرى للغوي وأخرى للقصاص. وسينهض التعليم حينئذ نهضة واسع ة. فالناشئ له الكتاتيب[18] يتعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والعروض، وللناشئة ألواح يكتبون فيها دروسهم. وامتزت البصرة بسوق باديتها يسمى المرْبد فيه ينهل الشباب من لقاء الفصحاء والأعراب. ويكتبون مما سمعوه من طرائف وجيد الشعر.

في مثل هذا الجو ستنشأ ظاهرة جديدة، امتاز علماءها بالثقافة المتنوعة، فيدرسون الأدب والمنطق والعلوم حتى يصيروا في ذلك متحدثين في أشكال متنوعة من صنوف المعرفة. شَغُف بها السلاطين وأغدقوا عليها بوافر العطايا.

ومن بين أهم المحطات التي ستساهم بشكل كبير في الحفاظ على كل هاته المعارف التي نشأت. وهي مرحلة استبدال الجلود والقراطيس بالورق الذي أنشأ له بن يحي البرمكي مصنعا في بغداد. فانتشرت ظاهرة النسخ وانتعشت مهنة الوراقين. وكثر امتلاك الناس للمكتبات ووراقين خاصين بهم لنسخ الكتب.

أما عن جو بلاط السلطان فقد عكس مظاهر الحضارة العلمية التي عايشها العصر من استقبال للفقهاء والمحدثين. وعقد مناظرات[19] وكان أشهر من قام بذلك المأمون. وغيرها كثير من الجوانب التي ستغني بعد ذلك مكتبات العرب العلمية، وسَتَرْوي جانبا كبيرا من تعطشهم للعلوم والتعلم.

وقد رافق هذا البناء الحضاري، صحة الإنسان ولاحظ ما يحتاجه من مرافق خاصة يلقى فيها العناية، ويتلقى فيها العلاج الكامل. تقول المصادر أن أول بيمارستان[20] محمول أو متنقل ظهر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد غزواته. بعد أن جرح سعد بن أبي وقاص في غزوة الخندق، فدعا بأن تنصب خيمة ويُعالج فيها. ثم استمر ذلك في غزواته عليه السلام، وكانت رُفيدة الأسلمية[21] وزينب طبيبة بني أود أحد المعالجات زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت هاته الأخيرة _زينب_ ماهرة في مداواة الجرحى ومتخصصة في طب الكحالة[22]. وكانت الأولى تنصب الخيمة وتريح المصابين وتعالج جروحهم. وتهتم بإطعامهم. فضمت هاته المهنة رجالا ونساءا ممن ساهموا في التشجيع على التعلم والتطور في مجال الطب.

أمّا عن أول بيمارستان فِعْلِيّ في الإسلام فقد تم على يد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي سنة 88 هـ .. وجعل فيه أطباء وأجرى لهم الأرزاق[23]. وهو نوعان ثابت ومحمول؛ فأما الأول فهو كثير الوجود في العواصم الكبرى للبلاد الإسلامية كالقاهرة وبغداد ودمشق. وقد بقيَ بعضه إلى اليوم؛ كمارستان "المنصوري" وهو "قالاوون" اليوم ومكانه بالقاهرة، وبيمارستان "النوري" بدمشق، و"القميري" و"أرغون"[24] بها أيضا. والثاني يكون خيمة متنقلة، تحمل كل اللوازم الطبية الخاصة في التطبيب والمداواة. تنصب لأغراض كالأوبئة والحروب وسفر السلاطين.

هاته المرافق ستعرف تطورات ملحوظة عبر الزمن وصولا لمرحلة حكم السلاجقة. من بروز التخصصات كالجراحة والطب العيون والصيدلة وغيرها وطريقة تنظيمها وعمل طاقمها أيضا والذي يتوزع على عدة أقسام. أما عن قاعاته فقد جاء في الأثر وصفها بالفسيحة، وجيدة البناء وتتوفر على مياه جارية. ولها صيدلية خاصة بها تسمى شرابخاناه وهو اسم فارسي. أما أقسامها فمنهم من تخصص بالأمراض الباطنة وغيرها للجراحة وآخر للجبيرة وقسم للكحالة وفيه من المشرفين وقوام الخدمة على المرضى[25]. وهي في ذلك تُعد دورا للمرضى وأمكنة لتدريس الطب أيضا.

وهي مرحلة متقدمة حققتها مصنفات القرون الأولى الهجرية والتي كانت كفيلة بأن تحمل الطب وفنونه إلى مراحل متطورة بعد الاكتشافات التي أسهم فيها أصحاب هاته الفترة. ولأن العرف الأخلاقي أوجب الإفصاح والاقرار بفضل الأولين والثقافات المختلفة، يقول العالم الكندي في ذلك: "وينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق واقتناءه من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا. والأمم المباينة لنا. فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق. وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغير قائله ولا بالآتي به. ولا أحد يبخس الحق بل الكل يشرفه الحق[26]" فمن هذا المنطلق وبهذا النظر نسرد أهم مرحلة ساهمت في استمرار الطب عامة كمعرفة إنسانية وبروزه وتفوقه كحصيلة عربية إسلامية في هاته الحقبة وهي كالتالي:

2. ترجمة الأصول الطبية إلى اللغة العربية:

ولأن الطب علم ضروري يفيد صحة الأبدان، وعلاجها من السقم والأمراض. احتاج الإنسان منذ القديم، تعلم أسرار صنعته، والبحث في أسباب سقمه وعافيته. نُقلت بالتواتر أبا عن جد في الأولين من شتى الأمم السابقة، ومع بقراط بالضبط تغيرت طريقة نقلهم لهاته العلوم من المعاينة والتعليم المباشر للصنعة عبر الأجداد في نسب اسقليبيوس (هذا الأخير الذي حصّل المعرفة بالطب عن طريق التجربة فشرع في تعليمها لأولاده وأقاربه[27])، إلى التوثيق والجمع.

يقول في ذلك أبو الحسن علي بن رضوان: [كانت صناعة الطب قبل أبقراط كنزا وذخيرة يكنزها الآباء ويذخرونها للأبناء وكانت من أهل بيت واحد منسوب إلى اسقليبيوس[28]] إلى أن نشأ بقراط[29] من أهل قو. فرأى أن أهل بيته اختلفوا في صناعة الطب، فتخوف من أن يكون ذلك سببا في فساد الطب[30]. فعمل على تدوينه في الكتب وعلّمه لولديه تاسلس وذراقن وتلميذه الفاضل فوليوس، فشعر أنه أخرج الطب من أهل اسقليبيوس، فوضع عهدا، استخلف فيه المتعلم حفظ هاته المهنة، والتخلق بأخلاقها. ثم وضع ناموس، عرّف فيه ما ينبغي لمتعلم صناعة الطب ولعل أبرزها وصيته المعروفة في الطب الموسومة إلى يومنا بوصية أبقراط.

ولم نكن لنعلم ذلك إلا بفضل الجهود التي بدلها الخلفاء العرب في الدعوة إلى الترجمة والنقل عن هاته الحضارة صناعة الطب، وأجزلوا العطايا تشجيعا على هذا الغرض، وأفسح المجال أيضا لتعلّم الناس هاته المهنة من أطباء حذاق من شعوب مختلفة من فارس والهند المعروفين بالأدوية والعقاقير واليونان أمثال بقراط[31] صاحب كتاب الفصول والأفيذيميا والأمراض الحادة، طبيعة الإنسان، وكتاب الأخلاط.

ثم دياسقوريدوس[32] والذي ألف أربعة عشرة مصحفا تحتوي على الأدوية المفردة لأقوام متعددة، له دراية في الأشجار والحشيش أيضا. ثم استلهم العرب أيضا من أفلاطون[33] الحكيم المعروف انتماءه لمدينة أثينا وهو رومي فيلسوف وطبيب عالم بالهيئة. ويأتي ذكر أرسطاليس[34] بعده في الطب والفلسفة إلا أنه عرف أكثر بالفلسفة. ثم جالينوس[35] الطبيب، من أهل بُرغمش شرق آسيا شرق القسطنطينية وهي جزيرة. برع في الطب والعلوم الرياضية وهو ابن السابعة عشر. وهو يعتبر مفتاح الطب وشارحه. وهو أيضا من ألّف فيه ستة عشرة ديوانا اشترط فيها على طالب الطب حفظها ولابتهال إليها. إضافة إلى شرحه كتب بقراط وبسطها للمتعلمين. وممن ذكر أيضا من الأطباء أنقيلاوس الاسكندراني[36] وقد ألف من كلام جالينوس المشهور كتابا وعدة مقالات. وله في أسرار ا لحركات كتاب أيضا.

وقد تم التعرف على هؤلاء جميعا بعدما تمت ترجمة كتبهم ومؤلفاتهم القيمة، ونذكر البداية مع أول محاولة متواضعة لنقل أحد هذه التصانيف على يد خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. هذا الحفيد الأول لبني أمية المتوفى سنة 85 هـ . . ..، والذي أبدى عناية بالعلوم الرياضية دون السياسة والسلطة. فتعلّم الفيزياء على يد الراهب الرومي مريانوس[37] وأمر بترجمة بعض النقول إلى العربية من بينها كتاب في الطب.

وفي فترة الخليفة المنصور تم نقل "الطب" لاستشعار هذا الخليفة أهمية وضرورة تطور هذا المجال، بعد أن احتاج من يطببه من ألم كان يجده في معدته، إذ عَجز كل من كانوا حوله عن القيام بذلك، فأوصوا بالطبيب جورجيس بن بخشيتوع الجنديسابوري[38] وهو رئيس الأطباء بجنديسابور أنداك لينال مشورته وتشخيصه. فاستقدمه إلى بغداد ليكشف ما به من مرض[39] سنة 148 هـ . ..، فعالجه _بعدما نظر في بوله_ بأغذية ملطفة فعاد إلى مزاجه ففرح لذلك الخليفة، وأمر بملازمته. هذا الطبيب الذي كان يتقن كلا من السريانية واليونانية والفارسية فضلا عن العربية فنقل في زمن المنصور كتبا طبية من اليونانية. إلا أن هاته الفترة اقتصرت ترجمتها على بعض الكتب في الهندسة والطب والنجوم كما يقول عز الدين الفراج في كتابه.

ثم خَلَفَ بخشيتوع والده في خدمة الخليفة وعاصر بَعده كُلاً من الهادي والرشيد إلى أن توفي[40]، ثم جاء بعده جبريل ابنه الذي نبغ في الطب وخدم خالد بن يحيى البرمكي حتى قدمه للرشيد فصار طبيبه وظل كذلك زمن الأمين والمأمون إلى أن توفي في خلافته 213 هـ . . . . وهو من أل بيت واحد من أصل سرياني. ولجبريل مؤلفات طبية كالروضة الطبية[41].

الملاحظ في العديد من هاته الفترات أن المترجمين كانوا في الأصل أطباء من ديانات مختلفة. منهم المسيحي ومسلم واليهودي وغيرهم من الديانات. ثم كانوا من مناطق مختلفة؛ مما ميز هاته الفئة بخاصية التعدد اللغوي. فكانوا ينقلون إلى العربية من لغات أخرى يتقنونها كالعبرية والسريانية والفارسية واليونانية بتوصية من الخلفاء الذين خدموهم. فضلا عما ألفوه من كتب في الطب خاصة بهم كُتبت بلسان عربي.

فمسألة الترجمة هاته ذهبت في مسار أوسع مما نتخيله. فالمتقن لعدة ألسن صار مترجما، وفي نفس الوقت مؤلفا لكتبه الخاصة وشارحا لما تمت ترجمته من كتب الأطباء السابقين. ومن هم من يزاولون هاته المهنة؛ أي أنهم أطباء. هذا المزيج بالخصوص هو ما سيزهر في فترة المأمون طفرة أو نقلة في مجال العلوم. لما قدمه من تمويلات وتشجيعات سواء في تجميع الكتب القيمة من حضارات مختلفة؛ كانت شَرطه في الصلح معهم. تُبرز وعي السلطان بقيمة العلم في تطور وازدهار الأمة الإسلامية. فبعد أن أحضر هارون الرشيد كتبا من العمورية. سار المأمون في الصلح مع ملك الروم أيضا بعد أن بعث له بالكتب المختلفة الخاصة بهم.

فتُرجمت زَمن الرشيد علي يد يوحنا ابن ماسويه[42] كتب قديمة طبية مما وجد في أنقرة وعمورية وبلاد الروم، ثم وضع أمينا على الترجمة بعد أن جمع كتابا حذاقا يكتبون. عاصر كلا من هارون والأمين والمأمون وبقي إلى أيام المتوكل. وله كتب أيضا: ككتاب الكامل، وكتاب الحمام، دفع ضرر الأغذية، كتاب الاسهال، علاج الصداع وغيرها[43]. أمّا ابنه عيسى بن ماسويه[44] فله كتاب قوى الأغذية وكتاب من لا يحضره الطبيب.

وأيام المتوكل نَذكر الترجمان يوحنا ابن بطريق[45]، هذا الذي كان أمينا على الترجمة إلى اللسان العربي. أجود ما وُصف به في كتاب الطبقات أنه كان حسن تأدية المعنى في نقله. وقد ترجم لأرسطاليس وإلى الاسكندر. ولا ننسى تلميذه حنين ابن إسحاق[46] هذا الذي عرف بجودة لسانه العربي واليوناني على سواء. سافر من بغداد إلى بلاد فارس ليتلقى أصول اللغة العربية على يد الخليل أحمد النحوي. حتى برع في لسان العرب ثم اختير ليكون مترجما زمن المتوكل. مع تلة من الكتاب والمترجمين. وهو من شرح معاني كلٍ من بقراط وجالينوس. وتلميذه أيضا نقل من السريانية إلى العربية واسمه حبيش بن الحسن الأعم، ومما نقل من الكتب: كتاب الزيادة في مسائل حنين.

وغيره كثير من المترجمين ك "قسطا بن لوقا البعلبكي[47]" الذي عُرف بفصاحته في اللغة اليونانية، واللغة العربية، فسّر ونقل العديد من الكتب الأجنبية من بينها: كتاب الدم، كتاب البلغم، كتاب الصفراء، كتاب السهر، وفي الأوزان والأكاليل كتاب أيضا.

إلا أن أغلب هاته الكتب لا تظل إما مخطوطات أو ضمن مكتبات متفرقة سواء في إيران أو أوروبا أو تركيا، وقليل منها من قد تجده كنسخة الكترونية محققة. ثم لابد من جهود كبرى في هذا الباب. رغم أن الكتب العربية الطبية التي ألفت في هذا السياق، لعبت دورا مهما في الحفاظ عليها. ضمن عمليات البحث وتجربة متطورة في الطب. فقد درس الأطباء العرب ممن عاصروا فترة الترجمة، الطب اليوناني وغيره ثم انتقلوا إلى التَعلم المباشر ثم مزاولة المهنة والكتابة والتصنيف لها. فحافظت بذلك على الموروث الطبي الإنساني القادم من مختلف الحضارات، وأضافت عليه ما توصلت به من نتائج جديدة. وما طورته من مدارك فيه.

3. التأليف الطبي العربي:

مما لا شك فيه أن قاعدة التأليف الطبي في هاته الفترة، يصعب اختزالها في هذا المقال وقد صنفت لأجلها فهارس كبرى وموسوعات، تبغي فقط تأريخ أسماء الأطباء وأهم اسهاماتهم في تطور البحث الطبي، وأهم اكتشافاته. ضمن سياق زمني مرتب، ثم أيضا حسب البلدان والمناطق المختلفة. ككتاب "طبقات الأطباء لابن جلجل"، أو كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، أو "فهرست "لابن النديم، وغيرهم كثير..

وهذا الجزء من المقال لا نبغي به إحصاء أو سرد كل طبيب مع ما كتبه، بقدر ما نريد أن نضيئ للقارئ أي كان ومن أي تخصص بعضا من الجوانب العلمية في الطب العربي، والتي تساعد الطالب اليوم من توسيع مداركه والانخراط في عملية التعلم، ودراسة الطب وفهم منطقه من باب الثقافة العامة، أو من باب اكتشاف جزء كبير من جسم الإنسان وطريقة عمله، وبعضا من أسباب مرضه التي قد تعرض لنا كل يوم. وأيضا نضيء لأصحاب التخصص جزءا من التاريخ الطبي العربي باللغة الأصل، باعتبار أن الطب صار يدرس باللغات الأجنبية، الإنجليزية في كثير من الدول، والفرنسية في المغرب. دون أن يفكروا أنه من الممكن أن يتصلوا به مباشرة من خلال النسخة الأصل.

فكتبوا عن حفظ الصحة وأساليب الوقاية من المرض. ثم العلاج ان حدث المرض. وبِطُرقٍ مختلفة؛ حسب الشخص ونوعية مزاجه والبلد الذي يسكن به. ثم جاء في رد الصحة ما يتم بتدبير المأكل والمشرب وبعض الملطفات وكل ما يعيد الشخص لحالته الطبيعية. ولم تكن الكتب الطبية القديمة وحدها موجهة لهذا الطب الإسلامي، بل ساهمت أيضا تعاليم الإسلام في رسم سياق الصحة والمرض. فنجد بعضا من الإشارات في كتاب‌الله تعالى، وفي سنة نبيه الكريم محمد صلى‌الله عليه وسلم. كانت مرجعا أخلاقيا وعلميا أيضا. فأعطى‌الله سبحانه وتعالى إشارات حول خلق الإنسان مثلا. ومراحل تكوينه في الجنين ثم في مرحلة الحياة الخاصة به. وغيرها من الإشارات الوقائية من أجل تجنب المرض. فحدثت الشريعة على عدم الإسراف أو الإقتار في كل شيء ورسخت منطق الاعتدال في كل حياته. وعلم الطب هذا تشرب هذا النوع من الإشارات ورسم مساره الخاص والنوعي في مجال الطب من خلال الاستفادة من الطب القديم والإعجاز القرآني والطب النبوي ثم جاء رسم مساره بعد الامتلاء ما نفع به الإنسانية جمعاء.

ومن أشهر هؤلاء الأطباء أبو بكر بن زكريا الرازي[48] هذا الطبيب الذي شهدت له الفهارس المترجمة له؛ على انه فريد زمانه، طبيب حاذق حرّك مسار الطب وأضاف فيه من النافع. ظلت مادته تُدَرس حتى حدود القرن السادس عشر في أوروبا. امتازت كتبه بالشرح والتفصيل من خلال عرض آراء الأطباء الذين سبقوا في المهنة من اليونانيين وغيرهم. ثم يعرض وجهة نظره والتي غالبا ما كانت نتيجة التجربة، _تجدون هذا النوع من الكتابة في موسوعته المعروفة بالحاوي في الطب_ فالطب التجريبي كان من أهم اكتشافات أبي بكر الرازي وكمثال على ذلك في باب التنفس من هذه الموسوعة يقول: [قال أبقراط في المسألة السادسة من أبيذيميا التنفس منه ... ثم يقول مرة أخرى _في نفس الفقرة_ جاء أن أبقراط وصف في هذا القول ... إلى أن قال: وأقول _أي رازي_ أن التنفس[49]].

ثم سعت مؤلفاته وكل الأطباء صراحة في هاته الفترة؛ إلى المزج بين منطق "حفظ الصحة" و"العلاج"، وأيضا تعليم الطب للطلاب الراغبين في هاته المهنة النبيلة. فجمع كل ذلك في كتابه "المنصوري في الطب". والذي امتاز بتبويبه المتناسق، وشرحه لأجزاء الجسم بالتفصيل كل واحد على حدى، من الدماغ إلى أخمص القدمين. ثم فرغ للعلاجات والأدوية في مقالات متتالية من الكتاب. وهو كتاب أنصح به من أراد اختيار تخصص الطب. لكي ينظر منطق الطب الذي كان في القرون الأولى. خصوصا أنه يملك اللغة العربية التي أُلِّفَ بها هذا الأثر وغيره. ويَفعل كما فعل الوالي المنصور بن إسماعيل[50] حين طلب منه كتابة كتاب لا يلقى مشقة في فهمه. فكتب له هذا الكتاب وسمي باسمه "المنصوري في الطب".

هذا الكتاب بالضبط، قام المحقق حازم بكري الصديقي فيه بمجهود كبير يحسب له، فأرفقه بفهرس ضم شروحات خاصة لكل المفردات الغريبة أو الأجنبية؛ بحكم أن كثير من أسماء العلاجات من أعشاب أو أغذية كانت تسمى بأسماء أجنبية إما فارسية أو كردية وأخرى يونانية، وحتى بعض أسماء الأمراض، فيطلق مثلا على مرض الزهايمر "ليثغس" ووَرَم الدماغ "قرانيطس".

ثم وصف أيضا المحقق في تقديمه للكتاب ما جاء من صعوبات نذكر منها الجانب اللغوي، إذ رصد أخطاءا لغوية وصرفية متعددة. يقع فيها المؤلف الرازي، وكأن الخيط في بعض الأحيان ينقطع عن الجملة، وتُحسها غريبة. قد تدل على أن الرازي كان يلحن في كتاباته، أو أن تعدد النساخ الذين كتبوا هاته المصادر قد نسخوا بطريقة غير صحيحة لبعض الكلمات. والأخطاء هاته مست صيغة الجمع والمفرد أو يكون بصدد الحديث بصيغة المؤنث حتى يقلب إلى المذكر[51]. وهكذا دواليك. وليس مستبعدا كلا الأمرين ففي موسوعة الحاوي في الطب صادفت العديد من الأخطاء التعبيرية أو التركيبية. والنحوية. غير أن ذلك لا يقف حائلا بين فهم سياق حديث الطبيب، وما يريد توضيحه من أعراض لمرض معين وأسبابه ثم طرق العلاج. خصوصا أن نسخة المحققة قد رفعت هذا الخطأ وصححته.

اعتنى أيضا هذا الكتاب بدراسة فراسة الإنسان ودليلها على صحته. وأكثر الأمراض المعرض لها، أو نوع مزاجه. كل ذلك نعم من خلال عنصر الملاحظة. مثلا: [الصوت الجهير يدل على حرارة المزاج[52]. واللثغة تدل على رطوبة المزاج، وقصر الأصابع وضخامتها تدل على برد المزاج ورطوبته][53].

اعتنى أيضا الرازي بالنفس وأثر اضطرابها وسكونها على صحة الإنسان، فكتب الرازي كتابه الموسوم بالطب الروحي؛ وفيه يبسط للقارئ أهمية التربية الروحية. وضبط النفس وعدم اتباع الهوى. حتى تحافظ النفس على توازنها، فتحفظ بدورها الجسد من المرض. يقول في ذلك: [فالصبر عن الرذائل فضيلة النفس، بما يحتمل الإنسان الخير والشر، فمن قلّ صبره وحكمه هواه على عقله، فقد صيّر المتبوع تابعا، والمأموم إماما. فلا جرم أن جميع ما يرومه ينعكس عليه فإنه يتأذى من حيث قدر النفع، ويحزن من حيث أراد الفرح[54]] اعتمد في هذا الباب تصنيف أمراض النفس كما وصفتها الشريعة الإسلامية، إما في الكتاب أو في سنة رسولنا الكريم؛ فمثلا الغضب يحرق مزاج الإنسان فيحدث في البدن أخلاطا رديئة تؤدي لعدة أمراض مختلفة حسب مستوى وخطورة الاحتراق. فقد تؤدي إلى السكتة أو اضطراب في المعدة أو إلى ماليخوليا[55] أيضا. وغيرها من الأمراض الناجمة عن مثل هاته الأحاسيس، التي يرى الرازي أن على الإنسان العمل على ترويضها.

وفي مثل هذا السياق أيضا خاطب الطالب العازم على اختبار مهنة الطب، والتي أرى أنها من المواد التي لابد أن يدرسها طلبة الطب اليوم. في سياق الحديث عن أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في هذا المتعلم. والقائل بذلك ليس بالضرورة رجعيا، أو قديم. بقدر ما هو استدعاء لسياق أخلاقي أساسي صار مغيبا اليوم بشكل كبير. وكمثال على ذلك من واقعنا حين يُعرب الشخص عن رغبته في الالتحاق بكلية الطب غاليا ما يكون الدافع من وراء ذلك سببا ماديا محضا أو تابع لعُرفٍ عائلي. والقليل منهم من يستحضر شقه الإنساني، الذي من شأنه أن يغير مسار حياته كلها. وفيه يتنازل عن العديد من أساليب راحته.

وبالتالي إدراك هذا الشق في حد ذاته يشكل فرقا كبيرا بين طبيب وطبيب خصوصا في أوقات اتخاذ قرارات وتحديد مسار تخصصه النابع من مثل هاته الرغبات التي لا أجدها مع الأسف تلبي ضرورة تَعلُّم الطب سواء اليوم أو قديما كما سنرى مع الرازي وغيره من الأطباء. فهي بالدرجة الأولى مهنة إنسانية بامتياز. تبغي البحث والدراسة والممارسة طوال الحياة. لا فيها تقاعد ولا أي شيء من هذا القبيل. فيها هاجز البحث العلمي والاكتشاف. ثم الشق الإنساني الأكبر هو العلاج وانقاد ما يمكن إنقاذه من الحالات الواردة على المستشفى. لذلك يقول أبقراط "العمر قصير والصناعة طويلة، والوقت ضيق[56]".

ولكيلا يكون الكلام تحاملا منا على الأطباء فقد كتب الرازي في كتابه أخلاق الطبيب ما لا يقتصر به على نصح المتطبب دون المريض. فتجد في سياق تأليفه مسؤولية مشتركة بين كل من الطبيب والمريض. ففي نظره وجب على المريض إطاعة الطبيب والثقة

به من أجل تحقيق نتائج جيدة في العلاج. ثم نصح الطبيب بدوره على عدم الاعتداد بالنفس أو التكبر على المرضى الفقراء دون الأغنياء. ولا التفريق بينهم.

كذلك نصح بمراعاة الأخلاق في الكشف عن النساء. وعدم امعان النظر بهم دون موضع العلاج. ناهيك عن فكرة السكر ومنادمة السلطان في فترة علاجه. أن يحافظ أيضا الطبيب على سمعته وحسن سلوكه. وألا يفشي سرا من أسرار مرضاه. وغير ذلك كثير مما أفرده من نصائح في علاج بعض الأعراض والأمراض. لكن ما أثارني في هذا الكتاب لغته السلسة والبسيطة، وفي نفس الوقت الراقية لكونه يخاطب الطالب بقوله: "اعلم يا بني ..." وينصح السلاطين ممن اتخذوا لهم أطباء بأن يُحسنوا معاملتهم. ولا يأمروهم. ويأخذوا بنصائحهم.

وممن أجار عليهم السلاطين من الأطباء، ما جاء في الأثر من قصة طبيب بغدادي الأصل، يدعى "إسحاق بن عمران" والذي لقب ب"سم الساعة" لما اجتمع لديه من علم في الأعشاب والعلاجات والسموم. وحكايته بدأت عند دعوة إبراهيم الثاني من دولة الأغالبة وكان حاكم القيروان سنة 260 هـ ..، ليكون طبيبه والقائم على تدبير صحته. وقد عاهده على أن يكتب له تهدا بعودته لوطنه متى أراد ذلك. بزغ وانتشر اسمه في بلاد المغرب بعد أن كان طبيبا حاذقا يعالج الأمراء، وعامة الشعب أيضا. برع في تركيب الأدوية المركبة، واعتبر أول طبيب في المغرب العربي في اقرن الثالث الهجري. وليس هذا فحسب بل درس الطب لكثير من الأطباء كزياد بن خلفون واسحاق بن سليمان. وكذلك أبو بكر بن الجزار[57].

استمر هذا الطبيب في خدمة السلاطين المتعاقبة على الحكم، حتى استأذن للرجوع إلى بلده في فترة حكم ابن السلطان الثالث الملقب بزيادالله فرُفض طلبه. وهو ما خالف ما جاء به وعد والده له. غير أن علاقته به ظلت مستمرة في مجال تدبير مأكل السلطان، ومشربه. وغير ذلك مما تجتمع به أسباب الصحة. حتى أشرك أحد الأطباء اليهود في هذه المهمة مع إسحاق. وهو غير معروف الاسم. فحكي أنه ما منع إسحاق بن عمران غذاءا على السلطان إلا خالفه فيه الطبيب اليهودي. فغادر إسحاق البلاط. وامتنع عن تقديم المشورة له. واستمر في معالجة العامة من الناس وزادت شهرته. فلما بلغ أمره إلى زيادةالله أمر بحبسه، فقام الناس بتظاهرات أمام القصر لتعبير عن امتعاضهم. فزاد ذلك من حنقه فأمر بفصد ذراعيه. و تركه ينزف حتى مات[58] سنة(294هـ). والغاية من ذكر القصة أن حياة الأطباء وغيرهم ممن فطنوا وأتقنوا وتقدموا على غيرهم من إدراك أسرار العلوم . معرضون دائما لمثل هاته المواقف التي جعلت ابن سينا أيضا يتخفى في زي البهاليل[59] لنجاة بحياته في كثير من المواقف، خصوصا أنه عاش فترة انقسامات الدولة العباسية، حين اختلف الأمراء عليه. وتنازعوا أمره. وأراد كل منهم التفرد به وجعله طبيبهم.

له كتب عديدة أبلغ ما وصل إلينا رسالته في الماليخوليا. وهو كتاب عرض فيه أسباب المرض وأعراضه بالتفصيل. وشخص أسبابه النفسية أيضا والتي تشترك في ظهور أعراضه. وهو الكتاب الوحيد الذي وجدته له. إلا أن كتاباته قد بلغ مجموعها حسب رواية المحقق أنها ثلاثة عشر وهي مفقودة إلى الآن. وقد اختصت مواضيعها بعلم الصيدلة، والأعشاب، والفلسفة فكتب كتاب البول، والفصد وجمع لأقاويل جالينوس في الشراب.[60] وفي النّفس ما جاء في مقالته " الماليخوليا" وهي المصدر الوحيد الباقي بين أيدينا مما أُلّف، وتُرجمت هاته النسخة إلى اللاتينية، وتتوفر مكتبة ميونخ على نسخة لها، وقد تقفى المحقق أثرها ووجد من سرقها ونسبها لنفسه بعنوان: DE MELANCOLIA LIBRI DUO، واسمه قسطنطين هاجر إلى إيطاليا وقد اختص بالترجمة للعديد من المؤلفات الطبية.

لمثل هذا السبب يكون دور التحقيق مهما في إعادة النسخ الأصلية لأصحابها وكتابها الحقيقين. ولا يتأتى ذلك إلا بالوعي بأهمية التراث، وإيقاف أحادية التخصص هاته. التي جعلت نظرة الإنسان محدودة عما يحيط بعالمنا من أسرار. ويحرم نفسه لذة المعرفة

والخوض فيها بدعوى "التخصص". خصوصا أنها برزت نوعا جديدا في العلاج وهو العلاج النفسي حيث يقول في كتابه: [وجب أن تقابل الأعراض النفسانية بإزالة تلك الظنون الكاذبة، والتخيلات الفاسدة والخطرات الرديئة، من الألفاظ العقلية اللطيفة، والحيل النظرية، والنُظر المقنعة، بما يزيل ما وقر في النفس وانحبس في الخلد من المعاني الباطلة والتي لا حقيقة لها[61]] والملاحظ لهذا الأسلوب من العلاج أنه يشبه الطريقة العلاجية اليوم للطبيب النفسي. وجلساته العلاجية التي تنبني على الاستماع. وهي من الطرق التي بدأت مع هؤلاء الأطباء في هاته الحقبة بالضبط. أليس هذا مثيرا للإعجاب.

والحديث عن الطب الإسلامي لابد أن يمر على سيرة ابن سينا[62] "الشيخ الرئيس" هذا الذي ترك موسوعته الجامعة المانعة بعنوان: القانون في الطب. والتي جمعت ونقحت كل ما قيل قبله في مسائل الطب. فمن فرغ إلى محتواها فقد كفته عن غيرها من الكتب. غير أن العائق الوحيد في ذلك. مستوى القارئ في اللغة. بحكم أن لغة ابن سينا امتازت بالترابط والتزاحم المعرفي الذي قد يشوش القارئ في بداية الأمر _خصوصا في شق التعريف بموضوعات الطب كل واحدة على حدة_ لذلك عامة وجب مثلا الاستعانة بفهرس المحقق لكتاب المنصوري في الطب. لفهم المصطلحات وأسماء الأمراض والتشخيصات والأدوية أيضا. غير ذلك فهو موسوعة كافية وشافية. لمن أراد إثراء معارفه الطبية. خصوصا أن هذا الطبيب قد اجتمعت له مزايا الإحاطة والتحري والاستقصاء والتنسيق كما قال عنه عباس محمود العقاد في كتابه[63]. ولطلبة الطب في الانفتاح على طرق التشخيص والعلاج القديمة. والتي تنفعهم اليوم في باب القدرة والاستطاعة على التشخيص دون الاعتمادية المفرطة على التكنولوجيا. وتطوير حواسهم الخمس، وقراءة الأعراض من خلال وضع الشخص المريض. فلازالت مثلا في جنوب المغرب مستشفيات قد تعرف نقصا في الآلات أو المعدات، مما قد يهدد حياة المريض إن لم يجد من الأطباء الأكفاء في مثل هاته المواقف. فسرعة التصرف هي أيضا تبقى كفيلة مهارة الطبيب، وقدرته على التعامل مع أي ضرف وعامل الزمن يغالبه في إنقاذ هذه الحيوات.

وكمثال على ذلك ما عايشته من مرض جدتي الفالج، أو الرعاش الذي تم تشخيصها به حوالي سنتين، إلا أن بوادره قد بدأت كما تقول طبيبتها من سنين قبل. وبعد مدة من تتبع البرتوكول العلاجي الخاص به. لمدة ستة أشهر صارت معها أعراض غريبة، إذ تتعرض لأغماء وسيلان لعاب واحمرار في الوجه حد الاختناق ثم تقوم بحركات مستمرة دون توقف إذ تحرك رجليها ذهابا وإيابا حتى توشك على السقوط من فوق السرير، ثم نعيدها لمكانها فتقوم بنفس الحركات. وبحكم أنها امرأة مسنة فقد كانت وتيرة الحركات بطيئة. مدة انقطاع الأعراض بين كل مرة تقصر حتى صارت خمس إلى عشر دقائق لمدة ليلة كاملة. هذه الأعراض التي أذكر عرضت لها بعد أن خضعت لسلسة من الراديوهات التي أعقبت الأعراض الأولى التي كانت عبارة عن اغماء وعدم استجابة إلا بالسمع، وتبول لا إرادي وعرق شديد، ثم ألم شديد في الرأس وثقل. الشاهد عندنا في هذه القصة هو بعد ظهور نتيجة الفحوصات التي تعجبت لها الطبيبة المختصة بهذا المرض بالعبارة إذ قالت: لا أدري لماذا حدثت مع جدتكم نوبات الصرع؟ هذا التشخيص الذي سأجده بعد قيامي ببعض الأبحاث في موسوعة الحاوي في الطب في الجزء الأول منه _حين عرض لرأي أحد الأطباء اليهود _ بقوله: [الصرع الذي من السوداء ينتقل إلى ماليخوليا، أو من الماليخوليا إليه والذي من البلغم إلى فالج أو من الفالج إليه، وقال ومتى كان مع الصرع امتلاء وحمرة في الرأس والوجه، وامتلاء في الأوداج فاصفد ...]. ولن أقول لو أن هاته الطبيبة انفتحت على هاته المصادر لكان كذا وكذا. بل سأقول فقط على أن دراسة الطب العربي القديم بالطريقة التي درسوا هؤلاء الأطباء أنفسهم ما جاءهم من الحضارات الأخرى. لكان أنجع لمسيرة الطب الإسلامي وأبحاثه من تلقي النسخة العربية مترجمة ودراستها بالصيغة المترجمة دون العودة للأصل الذي يعتبر مقطة قوة هذا الطالب باعتباره مالكا للسانها.

ومن المسائل الملاحظة أيضا في ثقافة الطب العربية التي سمت العلاجات بأسماء مصادرها، لا بأسماء عناصرها. مما جعل تشارك المعلومة متناولا، ودارجا في كثير من الأوساط الاجتماعية العريقة عكس اليوم. فيعلمون مثلا دور عشبة البابونج وتهدئتها للأعصاب

أو دور الزعتر أو البنفسج ثم طريقة عمل نطولات. الخ. يقول الرازي في هذا الصدد: [فلا يدري متى يعرض حاجته إليه من الأوقات والأزمنة، والمواضع والأماكن، فليس بقدر كل وقت ولا في كل زمان ولا بلد سيستطيع أن يعرض على طبيب يعالجه[64]] أي الإنسان يجب أن يتعلم بعضا من أسرار الطب وطرق العلاج. ليستطيع تدارك أمره حين يحول بينه وبين العلاج. وهي ثقافة سائدة في العصور السابقة ولم تغادرنا إلا في حقبة العصر الحديث إذ صارت المعرفة بالصيدلة وثقافة العلاج مقتصرة على جهات معينة. وحتى دليل الدواء مكتوبا بطريقة غير مفهومة تبعد الإنسان مرة أخرى من الفهم واستدراك مثل هاته الصناعات.

هذا غيض من فيض، ولا زال من الأطباء العديد الذين لم نذكرهم، غير أني أتمنى أن تكون هذه المقالة قد أثارت نوعا من الفضول للمعرفة العامة دون أي شرط أو قيد. يحول بينه وبين تطوير ذاته وفهم منطق تحرك الكون. وعلى رأسهم الإنسان. هذا الجسم المعجز الذي يستطيع أن يكون معجزة في الخروج من أزمة صحية بفعل الإرادة والإيمان. والذي يستطيع في نفس الوقت أن يهلك نفسه ويمرضها بتفكير معين.

فهل من الممكن يوما أن تعود اللغة العربية حاضنة لهاته العلوم؟

الهوامش:

[1] سورة العلق من الآية 1 إلى الآية 5

[2] محمد علي الصابوني في الاختصار والتحقيق لتفسير ابن كثير، الجز الثاني الصفحة 556_557/ دار القران الكريم بيروت، لبنان/ الطبعة السابعة 1981

[3] سورة العنكبوت الآية 20

[4] سورة الغاشية من الآية 17إلى الآية 20

[5] سورة الإنسان الآية 2

[6] عز الدين الفراج، أستاذ بجامعة القاهرة له دكتوراه في علم النبات والزراعة والكيمياء /كتاب فضل العلماء المسلمين على الحضارة الأوربية الصفحة 30 / دار الفكر العربي القاهرة.

[7] سورة فاطر الآية 28

[8] سورة الزمر الآية 9

[9] الدكتور شوقي أبو خليل كتاب فتح سمرقند بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي الصفحة 12، دار الفكر المعاصر لبنان دار الفكر دمشق سوريا، مكتبة المهتدين الإسلامية.

[10] نفسه الصفحة 10

[11] شوقي ضيف/ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، الصفحة 162/ الطبعة الثامنة دار المعارف.

[12] نفسه، الصفحة 162

[13] شوقي ضيف / تاريخ الأدب العربي، الجزء 3 العصر العبسي الأول صفحة 91

[14]نفسه، العصر العباسي الأول، الصفحة 97_98

[15] الدكتور شمس الدين حمودة/ مقالة في الماليخوليا لإسحاق بن عمران/ صفحة 31، أطروحة نيل الدكتوراه في الطب بتونس لسنة 1979

[16] شوقي ضيف / تاريخ الأدب العربي، الصفحة 201 الجزء الثاني: العصر الإسلامي 2.

[17] نفسه الصفحة 202.

[18] نفسه الصفحة 100 الجزء 3 العصر العباسي الأول.

[19] شوقي ضيف / تاريخ الأدب العربي / الجزء الثالث العصر العباسي الأول، الصفحة 104

[20] هي كلمة فارسية في قسمين أولها بيمار وتعني دار وستان تعني المريض ثم جمعت على الشكل الآتي بيمارستان وهي دار المرضى في معناها.

[21] أحمد عيسى /تاريخ البيمارستانات في الإسلام الصفحة 14

[22] الكحالة نقصد بها: طب العيون / أحمد عيسى تاريخ البيمارستانات في الإسلام الصفحة 9/ طبعة 2011، مؤسسة الهنداوي للنشر والتوزيع.

[23] نفسه صفحة 11

[24] نفسه صفحة 10

[25] نفسه الصفحة 16

[26] أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي 185هـ_256هـ/ رسائل الكندي الفلسفية تحقيق: محمد عيد الهادي أبو رفيدة أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول/ الصفحة 103 ورقية، الكترونية الصفحة 156، دار الفكر للنشر والتوزيع طبعة 1950

[27] لابن أبي أصيبعة/ عيون الأنباء في طبقات الأطباء الجز الأول الصفحة 199

[28] موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أصيبعة المتوفى سنة 668هـ/ عيون الأنباء في طبقات الأطباء الجزء الأول الصفحة 205، الطبعة الأولى. دار المعارف

[29] طبيب فاضل من أهل اسقلابيوس، كان مسكنه مدينة قو وهي حمص بأرض الشامات/ طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص66.

[30] لابن أبي أصيبعة / عيون الأنباء في طبقات الأطباء الصفحة 206

[31] لابن جلجل / طبقات الأطباء والحكماء / صفحة 66

[32] نفسه الصفحة 71

[33] نفسه الصفحة 73

[34] نفسه الصفحة 75

[35] نفسه الصفحة 91

[36] نفسه الصفحة 101

[37] دكتور عز الدين الفراج، فضل العلماء المسلمين على الحضارة الأوربية، الصفحة 17

[38] أبي داود بن سليمان بن حسان الأندلسي الملقب بابن جلجل/ طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق الدكتور فؤاد السيد / الصفحة 114 ضمن الإحالة أو الشرح/ مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1955

[39] دكتور عز الدين الفراج/ فضل العلماء المسلمين على الحضارة الأوربية، الصفحة 17

[40] لابن جلجل / طبقات الأطباء والحكماء الصفحة 114 ضمن الإحالة

[41] لابن جلجل / طبقات الأطباء والحكماء الصفحة 114 ضمن الإحالة.

[42] نفسه الصفحة 115

[43] ابن النديم كتاب الفهرست/ الصفحة 412نسخته الورقية والصفحة 421 في نسخته الإلكترونية/ دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت لبنان.

[44] نفسه الصفحة 412 النسخة الورقية، 421 نسخة الكترونية.

[45] ابن جلجل طبقات الأطباء والحكماء الصفحة 117

[46] لابن جلجل طبقات الأطباء والحكماء صفحة 119

[47] ابن النديم كتابه الفهرست، الصفحة 411 في نسخته الورقية، و420 في نسخته الإلكترونية.

[48] محمد بن زكريا الرازي، مسلم النحلة، أديب وطبيب، أدار مارستان الري ثم مارستان بغداد. كان شديد المطالعة، شغوف بالعزف في أول شبابه. ثم انصرف للعلوم النظرية من طب ومنطقية كالفلسفة. له مصنفات كثيرة في الطب وغيرها. أنظر طبقات ابن جلجل الصفحة 127_128

[49] موسوعة الحاوي في الطب لأبي بكر الرازي الجزء الأول الصفحة 520 من باب التنفس.

[50] الأمير أبو صالح منصور بن إسحاق بن أحمد الساماني، حاكم الري (290هـ_ 292هـ) كلفه بكتابة كتاب في الطب لا يجد فيه مشقة / المنصوري في الطب الصفحة 525

[51] كتاب المنصوري في الطب / مقدمة المحقق الصفحة 9.

[52] لكل عضو في جسم الإنسان مزاج معين إما بارد أو يابس أو حار أو رطب. وله أيضا أخلاط ربما يطلق عليها اليوم بالإفرازات، كالصفراء والسوداء والدم والبلغم. تحدث أن هذه الأمزجة تتغير بحسب مؤثرات جسمية أو نفسية خارجية فتؤثر بدورها على هاته الأخلاط فيحدث إما مرض أو يغلب خلط معين على الجسم كله. وهي تسمى عند الأطباء أيضا بحالة ما بين المرض والصحة. فيقال مثلا هذا شخص له مزاج سوداوي، أو صفراوي. وهذه الأمزجة بدورها تؤثر على مظهر الشخص وقده. ذلك سهل على الأطباء من بعد التمرس أن يعرفوا نوع المزاج الخاص بكل مريض.

[53] نفسه الصفحة 90

[54] لأبي بكر الرازي، الطب الروحاني وتهذيب الأخلاق، تحقيق عبد العزيز عز الدين السيروان/ صفحة 35/ دار الأنوار الطبعة الأولى سنة 1993

[55] يسمى الماليخوليا أو الاكتئاب حاليا. وهي نتيجة احتراق السوداء

[56] نفسه الصفحة 58

[57] إسحاق بن عمران/ كتاب مقالة في الماليخوليا، الصفحة 13

[58] نفسه الصفحة 15

[59] عباس محمود العقاد، كتابه "ابن سينا" الصفحة 13

[60] نفسه الصفحة 16

[61] نفسه الصفحة 24

[62] هو العلاء حسين ابن سينا، أمير الحكماء، وهو المعلم الثاني، برع في الطب والكيمياء والفيزياء، والفلسفة. من مؤلفاته القانون في الطب عاش ما بين 317هـ_424هـ / له كتابات أخرى في الفلسفة والمنطق.

[63] كتاب ابن سينا لعباس محمود العقاد.

[64] كتاب المنصوري في الطب الصفحة 18